التصور القرآني لطلب العلم من خلال قصة موسى ﷺ والعبد الصالح:
مقاربة تربوية في بناء المتعلم وإرشاد المعلّم

بوبكر الكركري
عضو مركز مناهل للدراسات والأبحاث وإحياء التراث
المغرب

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز المكانة المحورية للعلم في القصص القرآني، من خلال تحليل مقاصدي وقرائي يتناول منهج القرآن في عرض قصة موسى والخضر عليهما السلام بوصفها نموذجًا رفيعًا لطلب العلم وآدابه. ويكشف البحث كيف أسس القرآن لقيمة معرفية سامقة دفعت موسى عليه السلام، بفضل العزيمة والإرادة، إلى السعي الحثيث وراء المعرفة. كما يسلّط الضوء على جملة من المهارات المنهجية المؤطرة بأخلاق العلاقة بين المعلّم والمتعلّم، والتي يقدمها العبد الصالح نموذجًا في سمات المربي الكامل وضوابط طلب العلم وأدب التعلّم.

ويوضح البحث أن المنهج القرآني يؤسّس لرؤية تربوية متكاملة تجعل من طلب العلم فعلًا تعبّديًا راشدًا يقوم على الصبر، والتواضع، والتسليم بحكمة الله في تعليم عباده، بما يجعل قصة موسى والخضر مثالًا بديعًا في منهج التلقي وشروط الانتفاع بالعلم. كما يتناول الأسلوب الفني للقصص القرآني في بناء شخصية المتعلم نفسيًا وتربويًا، بما يرسّخ قواعد التعلم الرشيد ومقاصده العليا.

Summary:

This study aims to highlight the central role of knowledge in Qur'anic narratives through a maqāṣid-oriented and exegetical analysis of the story of Moses and al-Khiḍr, presented as a distinguished model of seeking knowledge and its proper etiquette. The research demonstrates how the Qur'an establishes an elevated epistemic value that motivated Moses—through determination and resolve—to pursue knowledge with dedication. It also sheds light on a set of methodological skills framed by the ethics governing the teacher–learner relationship, embodied by the righteous servant as an exemplar of the ideal educator and the principles of disciplined learning.

The study further shows that the Qur'anic approach offersan integrated educational vision in which the pursuit of knowledge becomes an act of worship grounded in patience, humility, and trust in God's wisdom. Thus, the story of Moses and al-Khiḍr serves as a refined Qur'anic paradigm for learning etiquette, modes of receiving knowledge, and conditions for benefiting from it

مقدمة:

تُعدّ قصة موسى مع العبد الصالح من أبرز النماذج القرآنية التي قدّمت تصورًا متكاملًا عن قيمة العلم ومنهج تحصيله، إذ جمعت بين بيان مكانة العلم، الطلب، وأدب المتعلم، وخصائص المعلم، وصولًا إلى البناء النفسي والمعرفي لطالب العلم مقاصد. ويمثل هذا النموذج القرآني إطارًا تربويًا راسخًا يُستفاد منه في رسم منهجية تعليمية رفيعة المستوى، تجمع بين الجانب المعرفي والسلوكي والنفسي

وتتمثل **إشكالية** البحث في السؤال الرئيس: كيف تسهم قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام بيان قيمة العلم، والهمة في الطلب، وماهي المهارات والضوابط المنهجية التي جسدتها القصة، وما هي القيم التربوية والأخلاقية التي تتغياها؟

وتكمن **أهمية** البحث لمدى ارتباطه بقيمة العلم النبيلة، فهو أساس بناء الإنسان والعمران، وكما **يهدف** إلى ربط الإنسان المسلم بالوحي القرآني، الذي يعتبر المصدر الأول، وبالخصوص القصص التي تحمل مجموعة من الأحداث التي ترسم للإنسان المنهج الصحيح في طلب العلم، انطلاقا من الإرادة، والهمة، والتخلي عن العجب، والتأدب في الطلب.

وسأعالج **إشكالية** البحث بالمنهج الوصفي التحليلي، وذلك بوصف أحداث القصة القرآنية وتحليلها، والكشف عن أسرارها، بالاعتماد على أقوال المفسرين، ومصادر الفكر التربوي الإسلامي، من خلال البعد النفسي والقيمي والأخلاقي.

وتقوم **خطة** البحث على مبحثين، **المبحث الأول** خصص للحديث عن الأسس التربوية لقيمة العلم في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام. **والمبحث الثاني** خصص للحديث عن الآداب والمهارات المنهجية في طلب العلم والبناء النفسي للمتعلم، لأختم البحث بمجموعة من **النتائج** التي تخدم مصلحة طالب العلم خاصة والإنسان عموما، مع اقتراحة مجموعة من **التوصيات**.

المبحث الأول: الأسس التربوية لقيمة العلم في قصة موسى مع العبد الصالح

إن المتدبر في آيات الله تعالى يظهر له تفرد وتميز المنهج القرآني بمفاهيم تربوية غائبة في المناهج والنظريات التربوية التي صنعها البشر، رغم ما حققت من نتائج، وتلك المفاهيم القرآنية تستهدف صناعة إنسان صالح للدارين، ويعد القرآن الكريم بمنهاجه الموجه الأساسي للتربية وأهدافها وميادينها ومناهجها وأساليبها ووسائلها، في إعداد الإنسان فكريا وروحيا ونفسيا ووظيفيا، مراعياً في ذلك استعداداته وقدراته، وحاجات المجتمع الذي يعيش فيه.

المطلب الأول: قيمة العلم ومكانته في التوجيه القرآني

يظهر من سياق القصة أن العلم يحتل منزلة رفيعة في المنهج الرباني، إذ لم يتردد موسى – وهو نبي من أولي العزم – في طلب المزيد من العلم، وفي السفر من أجل نيله، مما يبرز قيمة العلم مهما بلغ الإنسان من مكانة. فتواضع الأنبياء للعلم يعدّ دلالة عظيمة على مكانته السامية، كما أن سعي موسى للبحث عن العالم الربّاني يؤكد أن العلم الحقيقي يُطلب من أهله، وأن طريق العلم يحتاج إلى جهد وبذل.

وقد دلّت القصة على أن العلم ليس واحدًا، وأن لدى كل إنسان نصيبًا منه، وأن الله يختار من عباده من يفيض عليه من علم الغيب أو العلم اللدني ما لا يعلمه غيره. وهذا يعزز مفهوم التخصص وتعدد مجالات التعلم، وأن العالم الحق هو من يدرك حدود معرفت

إن أول ما يمكن الوقوف عنده في قصة سيدنا موسى مع الخضر عليه السلام في الجانب التربوي التعليمي، قضية العلم والتعلم، لأن النهضة بالعلم من مقومات النهضة التي لا يتعارض فيها أحد، فالعلم هو الأداة التي تصنع الحضارات وبه ترقى الأمم، لذلك بجل القرآن الكريم حامليه وأثنى عليهم فقال: ﴿ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر(9)] ، بل جعل القرآن العلم قرين الإنسان في قصة الخلق فيه اكتسب بنو آدم أحقية التمجيد على سائر المخلوقات حين سأل الملائكة سؤالهم الاستعلامي : ﴿ وَإِذْ قَالَ

رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (30)]، ثم تأتي الآيات بعدها لتبين مكانة العلم من الخلق إذ له الدرجة الثانية بدليل قوله تعالى :﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة(31)]، فلولا هذا العلم لما استحق الإنسان خلافة الأرض.

قال الإمام السبكي: فإن الله تعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام من نعم الدنيا والآخرة ما لا ينحصر، فبدأ أولا بالعلم لشرفه في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: 15].

بدأت الآيات بذكر العلم؛ لتبين أنه الأصل في النعم كلها، فقد جمع الله تعالى له ولابنه سليمان عليهما السلام "مالم يجمعه لأحد، وجَعَلَ العلم أصلا لذلك كله" [1].

وقال ابن باديس رحمه الله: "ابتدئ الحديث عن الملك العظيم بذكر العلم، وقدمت النعمة به على سائر النعم، تنويهاً بشأن العلم، وتنبيهاً على أنه هو الأصل الذي تبنى عليه سعادة الدنيا والآخرة، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنَّما تُبنى عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينتظم به ويُساس، وأن كل ما لم يُبن عليه فهو على شفا جرف هار، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي، وبه دفاعها، وأن كل مملكة لم تحكم به فهي عُرضة للانقراض والانقضاض"[2] .

ولقد اهتم القرآن الكريم بهذا الموضوع، فأولاه الاهتمام الكبير كما أسلفنا، فإلى الجانب الخطابي فيه والصريح كان للقصة القرآنية أسلوبها في الدعوة إليه وفي كيفية طلبه والحرص على احترام أصحابه، جاعلة الأنبياء والرسل القدوة التي يجب أن يحتذى بهم، حتى نتمكن من بناء مجتمع صالح، قادر على حل مشاكله، فوضحت الأخلاق التي يجب أن يكون عليها العالم و السلوك الذي ينبغي على المتعلم أن يتحلى به، وهي من الأسس التي ينهض عليها العلم النافع ، ولنضرب لذلك مثلا قصة موسى عليه السلام إذ يقول تعالى في شأنه عليه السلام ومرافقته للخضر عليه السلام.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60).... رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)﴾[الكهف60-82].

فقصة موسى عليه السلام من القصص الغنية والثرية في القرآن الكريم، جمعت جميع أنواع البناء المتعلق بالإنسان، كما سبق بيانه بأن القصص القرآني اختار له سبحانه وتعالى الحدث المناسب الذي يتوافق مع السورة، وهذا يعتبر نوعا من الإعجاز في القرآن الكريم، فقصة سيدنا موسى ذكرت في أكثر من مكان في القرآن الكريم، بحسب قضية السورة وأحداثها، وهذا ما ميز القصص القرآني عن غيره من القصص، لذلك لم يذكر الله في سورة الكهف إلا الجزء الأغرب من قصة سيدنا موسى، لتتناسب مع الأحداث التي اجتمعت في هذه السورة، فقصة موسى والخضر قصة العجائب الغيبية التي يقف أمامها العقل البشرى خاشعا ومسلما، فهي قصة رسول موحى إليه ومعه منهج حياة ممثلا في التوراة، فيه الأمر والنهي، وقصة عبد صالح آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علما، ولكل منهما خصوصيته، لتكون سورة الكهف من السور التي جمعت القصص الغريبة، قصة يأجوج ومأجوج، قصة أصحاب الكهف، وأصحاب الجنتين، وقصة موسى والخضر عليه السلام، ولم تذكر في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وذلك في سورة الكهف.

فاخترت هذه القصة لما تحتوي عليه من الجوانب التربوية التي تعتبر طريقا ومنهجا يتبعه الإنسان في تحصيل العلم دون الوقوع في الفتنة، لأن فتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرض لها أهل العلم، وذلك بما يصيبهم من العجب لاعتقادهم حيازة العلم، فقصة موسى مع الخضر عليهما السلام بين فيها المنهج القرآني أن العلم لا يستطيع أحد أن يدعي حيازته ولو كان نبيا، كما أن في القصة مجموعة من الخطوات التي رسمها

المنهج القرآني من أجل اتباعها للبناء التربوي المتعلق بالجانب العلمي، والقصص القرآني فيه من الأحداث ما يمكن أن تكون منهجا متكاملا في بناء الإنسان في جميع المجالات وعلى جميع المستويات، فيه ما يتعلق بالأمور العقدية والنفسية والاجتماعية والأسرية والاقتصادية والتربوية.

"إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيل، ويَظْهَرُ أَنَّ هَذَا حِينَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ، خِلَالَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً الَّتِي قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَتِيهُوا فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ المقَدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ. فَسُئِلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ قَوْمِهِ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَا لَا أَدْرِي. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قال مُوسَى عَلَيْه السلام: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي به"[3].

"ذكرت قصة موسى والخضر في أوثق كتب السنة الشريفة؛ ففي الصحيحين أن سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى عليه السلام، صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر فقال: كذب عدو الله، سمعت أبي بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن عبدا لي به؟ من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى لربه: فكيف لي به"[4]

موسى عليه السلام قبل أن يمن الله عليه بالنبوة مر بمراحل عدة، هذه المراحل كلها كانت لبنات في بناء شخصيته عليه السلام، ولادته وكيفية انتقاله إلى بيت فرعون، وتدخل قدرة الله في ارجاعه إلى أمه تحت رعاية فرعون، وكيف ذاق رغد العيش في قصر فرعون، ليتحول إلى مرحلة ثانية، وهي الانتقال من رغد العيش إلى الرعي والنصب والتعب، فاقتضت حكمة الله أن قدر أن تختم هذه المرحلة الأولى من حياته بعشر سنوات، أمضاها موسى في البر والصحراء، يرعى الأغنام، ويتعرض للنصب والعرق والحر والريح، ويبذل في ذلك ما يبذل من الجهد والمشقة والصبر والمعاناة، وذلك في مقابل السنوات الأولى التي قضاها منعماً مرفها في قصر فرعون، تقضى فيه كل حاجاته، وتؤمن له جميع المتطلبات، "وقد فعل الله الحكيم ذلك بموسى لأنه يُعده للمهمة الكبيرة، حيث سيجعله نبياً رسولاً، ويبعثه إلى فرعون، ويُنقذ به بني إسرائيل، وهذه المهمة لا بد أن تسبقها فترة تهيئة وإعداد، فكانت السنوات العشر في مدين"[5] عاملا مهما في بناء شخصية سيدنا موسى عليه السلام.

بعد ما من الله على سيدنا موسى باصطفائه نبيا وإرساله إلى فرعون لدعوته إلى وحدانية الله تعالى ليتحول من عنصر من آل فرعون إلى داع له، لأن الدعوة إلى التوحيد لا تحابي أحدا.

إن أول ما بدأت به قصة سيدنا موسى مع الخضر عليه السلام في الجانب التربوي، هو محاربة العجب والتعالي في حيازة العلم، فالمنهج القرآني وقف عند هذه الأمور ليبين خطورتها، لأن الإنسان مهما بلغ من العلم يجب أن يعترف بجهله ويبدي تواضعه في طلبه، وما بالك بنبي. إن الله لما أخبر موسى بوجود من هو أعلم منه إنما أراد أن **يهدم** العجب والاستعلاء عند من يأتي بعده، لأن الأنبياء معصومون من الوقوع في المعاصي، "فقول موسى للعبد الصالح في قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف (66)]، يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى "أنه مهما رفعت درجة الإنسان، فإنه يجب ألا يتكبر، بل لابد أن نتواضع جميعا؛ فالكبرياء لله وحده، ويجب ألا يغتر إنسان بعلمه، أو بما آتاه الله من فضله، فيتكبر في الأرض"[6].

اختبر الله سيدنا موسى عليه السلام في حيازة العلم لما خطب في الناس وسئل عمن هو أعلم الناس قال أنا، ولكنه بمجرد أن أعلمه الله بمن هو أعلم منه، سأل الله أن يدله عليه، دون أن يخالج نفسه ذاك الشعور الذي أعمى الشيطان، فسيدنا موسى اصطفاه الله نبيا، وعلمه من بعض أسرار علمه، ومع ذلك لم يمنعه ذلك من الاستزادة من العلم، إنه المنهج القر آني الذي وجهنا إلى الوقوف عند هذه القيمة الأخلاقية العظيمة–التواضع– التي يجب أن يتصف بها كل مخلوق، لأنها سبب النجاة، كما يجب أن يحرص عليها طالب العلم، مهما بلغ علمه، وأن يتواضع في طلب العلم ولو كان أقل منه شأنا، فقوله تعالى: ﴿ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف (66)]، فيه إشارة إلى قيمة التواضع لدى المتعلم، و "اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف

عندما أراد أن يتعلم من الخضر عليه السلام، **فأحدها**: أنه جعل نفسه تبعا له لأنه قال: هل أتبعك، **وثانيها**: أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعا لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع"[7].

فنبوة موسى عليه السلام لم تمنعه من التعلم على يد الخضر، مما يؤكد على أن التكبر باسم الجاه والمنصب عائق من عوائق التعلم، كما أن الله عز وجل بين لنا في نفس السورة أثر التكبر على حياة الإنسان وذلك من خلال قصة صاحبا الجنتين،" ومضت الآيات الكريمة في استعراض ما آل إليه أمر المزرعتين، مبينة أن ما توقعه الرجل المؤمن لهما، وما تنبأ به لصاحبهما عن مصيرهما – نظراً لكفره وعدم شكره، وغروره وكبره – لم يلبث أن أصبح هو الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، إذ المؤمن ينظر بنور الله، وحينئذ ندم صاحبهما على كفره دون أن ينفعه الندم، وذاق من مرارة الخيبة والإفلاس أشد الألم، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: وأحيط بثمره، أي هلك كل ما كان في مزرعته من الثمار"[8] ، إنها نتيجة الكبر التي كانت أول معصية عصي بها الله، فالنتيجة تكون دائما هي الخسران المبين في الدنيا والآخرة، فكانت قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح أول ما شددت عليه هو التحلي بقيمة التواضع، وتخلية النفس من شرور الكبر، فكانت أول خطوة علمنا إياها القرآن في طلب العلم هو التواضع.

المطلب الثاني: وضوح الهدف في الطلب ودور الهمة والإرادة والصبر

اتسم موسى عليه السلام بوضوح الهدف حين قال لَهُ مُوسَى ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف (66)]، فحدد غايته بوضوح: طلب العلم النافع الموصل إلى الرشد. ووضوح الهدف يمثل قاعدة أساسية في منهج طلب العلم؛ فهو الذي يوجه الجهد ويحدد مستوى المثابرة.

كما أن الهمة العالية تتجلى في استعداد موسى لقطع المسافات، وتحمل المشقة، والبحث الدؤوب حتى "مجمع البحرين"، مما يعكس أن طلب العلم لا يتحقق بالراحة والدعة. وبرز في القصة كذلك الصبر بأنواعه: الصبر على الجوع والتعب والسفر، والصبر على ما قد يبدو غير مفهوم أو مخالف للعادة. وهذا يرسخ قاعدة تربوية مهمة: أن العلم لا ينال براحة الجسد ولا بضعف العزيمة، بل بقدر من الصبر والمصابرة والمجاهدة

لم يتردد سيدنا موسى عليه السلام لحظة، بل عقد العزم ليشد الرحال لطلب المزيد من العلم، لأنه لا ينبغي لأي عالم أن يقنع بما عنده من العلم دون أن يطلب المزيد ﴿ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه (114)]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف (60)] وهذا ما حصل لسيدنا موسى، كان عنده النهم في طلب العلم، فهانت عنده كل الصعاب"، ونفهم من سياق القصة فيما بعد – أنه كان لموسى عليه السلام – هدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وأنه كان يقصد من ورائها أمرا، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن من قوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف (60)] ، والحقب قيل عام، وقيل ثمانون عاما؛ فهو تعبير عن التصميم لا عن المدة على وجه التحديد"[9].

كان بالإمكان أن ييسر الله لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح دون مشقة أو تعب، ولكن سنة الأخذ بالأسباب حاضرة في القصة لتصير مسلكا للوصول إلى الهدف، كما أن المكابدة والصبر والتحمل مطلوب في سبيل طلب العلم، كما أن طالب منصب أو رياسة أو صناعة ينبغي أن يثابر ويواصل مسيرته بالغالي والنفيس حتى يبلغ الهدف، ويقول الإمام السعدي رحمه الله: رحلة موسى عليه السلام من أجل التزود من العلم " فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه ، وترك القعود عن بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك"[10]، لأن "العلم الشرعي هو الأساس الذي يبني العقل، ويربي الخلق، وما ظهرت الغثائية في بعض جموعنا الإسلامية، وانتشرت الهشاشة الفكرية، إلا بعد أن هجر العلم الشرعي، وأصبح عند بعضهم مجرد ترف كمالي، يصرفهم عنه أدنى صارف"[11] ، فإن " القراءة الجادة الهادفة عند شباب الأمة من مظاهر الجد في تحصيل أسباب الرفعة والنهضة والتقدم واللحاق بركب الحضارة التي تخلفنا عنها"[12]، فلن يصل طالب العلم إلى أهدافه إلا عن طريق الصبر والمصابرة، وسيجد في

بداية الطريق الشدة والعنت، ولكن مع تكرار الصبر ومجاهدة النفس، تسهل الأمور، فطالب علم يجب ألا يفوته لقاء العالم، وكيف بطالب علم يسمع بعالم على الأرض ولا تتوق نفسه إلى لقاءه، "بل إنه ليتحسر ويشتد أسفه إذا سمع بعالم معاصر له ولم يراه"[13] .

يقول السعدي في فوائد هذه القصة "إن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، فمن لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه"[14].

المبحث الثاني: الآداب والمهارات المنهجية في طلب العلم، وأثرها في البناء النفسي والمعرفي للمتعلّم

المطلب الأول: آداب والمهارات المنهجية في طلب العلم، وملامح المعلّم النموذجي في شخصية العبد الصالح

أولا: الآداب المهارات المنهجية في طلب العلم

تُبرز قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح أن طلب العلم في التصور القرآني ليس عملية ذهنية محضة، ولا تحصيلًا تراكميًا للمعلومات، وإنما هو مسار تربوي قيمي، تحكمه جملة من الآداب والمهارات المنهجية التي تُسهم في بناء شخصية المتعلّم علميًا ونفسيًا وسلوكيًا. وتبدأ هذه المنظومة القيمية من طبيعة العلاقة التي تنشأ بين المتعلّم والمعلّم، باعتبارها الإطار الناظم لنجاح العملية التعليمية أو تعثرها.

وقد افتتح موسى عليه السلام رحلته في طلب العلم بطلب الإذن، في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف (66)]، وهو تعبير بالغ الدلالة على التواضع العلمي، والإقرار بفضل العالم، والاعتراف بمكانته المعرفية. فصيغة الاستفهام هنا لا تفيد مجرد السؤال، وإنما تحمل في طياتها معاني الأدب، والاحترام، وحسن الخطاب، وهو ما يشكّل مدخلًا أساسيًا لكل عملية تعلّم ناجحة. ويؤكد هذا السلوك أن التواضع شرطٌ منهجي في تحصيل العلم، وأن الشعور بالاكتفاء أو التعالي المعرفي يحول دون الانتفاع الحقيقي بالمعرفة.

كما يبرز في القصة التزام موسى عليه السلام بالمنهج الذي رسمه المعلّم، واحترامه للشروط التنظيمية التي وُضعت لضبط مسار التعلّم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [الكهف (70)]. وتكشف هذه الآية عن قاعدة تربوية راسخة، مفادها أن احترام منهج المعلّم وطريقته في التعليم يُعدّ من صميم آداب التعلّم، وأن مقاطعة المعلّم، أو الاعتراض قبل اكتمال الفهم، يؤدي إلى اضطراب التلقي، ويُعيق بناء المعرفة في ذهن المتعلّم.

وتدلّ القصة كذلك على ضرورة التحرر من الاستعجال في الحكم على الوقائع والأحداث، إذ إن التسرّع في الاعتراض قبل الإحاطة بجميع جوانب المسألة يؤدي إلى سوء الفهم، ويُنتج معرفة سطحية أو مشوّهة. وقد عكس اعتراض موسى عليه السلام المتكرر ضعفًا بشريًا طبيعيًا، أقرّ به ضمنيًا، وهو ضعف يحتاج إلى تهذيب وضبط من خلال الصبر والمجاهدة، وهو ما يؤكد أن التربية القرآنية لا تُغفل الطبيعة الإنسانية، وإنما تعمل على تقويمها وتوجيهها.

ويُستفاد من القصة أن الأدب في طلب العلم ليس مقصورًا على الطالب وحده، بل يشمل العالم كذلك؛ فالعالم، مهما بلغ من العلم، يظل محتاجًا إلى الالتزام بالأدب مع من هو أعلم منه وعدم الاعتراض على الأساليب التعليمية التي يختارها معلمه. وقد تجلّى هذا المعنى بوضوح في التعاقد التربوي الذي أبرمه موسى عليه السلام مع العبد الصالح، والذي شكّل إطارًا ناظمًا للعملية التعليمية، يقوم على الصبر، والتدرّج، واحترام المنهج.

ويمثّل هذا التعاقد صورة من صور المنهج القرآني في تنظيم التحصيل العلمي، حيث يبدأ بالتواضع، ويتأسس على الصبر، ويتوّج بالأدب الرفيع في الخطاب والسلوك. وقد ضرب موسى عليه السلام، رغم مكانته النبوية، مثالًا عمليًا في حسن الأدب، إذ تقدّم بطلبه في صيغة مهذّبة تجمع بين التوقير والرغبة الصادقة في التعلّم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف (66)]، وهو تعبير يكشف عن وعي موسى بأهمية التعلّم المستمر، وإدراكه أن العلم درجات، وأن الإنسان مهما بلغ من المعرفة يظل محتاجًا إلى من يرشده.

وفي مقابل ذلك، وضع العبد الصالح شرطه التربوي بوضوح وحكمة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف (70)]. ويكشف هذا الشرط عن وعي المعلّم بحدود الاستيعاب المرحلي لدى المتعلّم، وحرصه على بناء المعرفة بناءً متدرّجًا، يبدأ بالمشاهدة، ثم الفهم، ثم التأويل، وهو منهج تربوي بالغ العمق والأثر.

ومن مهام طالب العلم تنمية القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة في نفسه، وملاحظة معلمه ملاحظة دقيقة، والتأثر به تأثرًا إيجابيًا؛ إذ لا يمكن إنكار الدور السلوكي العميق الذي يمارسه المعلم في حياة المتعلّم. فالواقع التربوي يؤكد أن المعلم يظل صاحب الأثر الأكبر في تشكيل شخصية طالب العلم، وأن ألفاظه، وعباراته، ومواقفه، تترك بصمات دائمة في نفس المتعلّم؛ فكم من كلمة صادقة من مربٍّ مخلص كانت سببًا في نهضة طالب، وكم من كلمة قاسية أو جائرة كانت سببًا في إحباط النفوس، وإضعاف العزائم، وبذر مشاعر البغضاء والشحناء. ، وتكدر النفوس"15.

وتُعدّ اللغة التي يستعملها الإنسان في تواصله مع غيره مرآةً لعقله، ودليلًا على صلاح قلبه؛ فعلامة الرشد العقلي والاستقامة القلبية تظهر في نقاء الخطاب، وسمو الألفاظ، والبعد عن الفحش والبذاءة. "فبقدر سمو لغته وطُهرها وترفعها عن الفحش والبذاءة، يكون سمو عقله وشرفه"[16]. ويزداد هذا المعنى أهمية في حق العالم، الذي ينبغي له أن يتجاوز ظاهر الأمور إلى إدراك مقاصدها، وأن يحيط بظروف النوازل وملابساتها، حتى لا يتعجّل في إصدار الأحكام في غير موضعها، فيقع في الغلط والشطط، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف (72) (73).[(

كما تؤكد القصة أن طالب العلم الراغب في الازدياد من المعرفة مطالب بالتأنّي، وعدم الاستعجال على من هو أعلم منه، وألا يُكثر من السؤال في غير موضعه؛ لأن كثرة السؤال قبل نضج الفهم قد تؤدي إلى الإملال والمضايقة، وتُربك المسار التعليمي، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف (70)]. وتكشف هذه الآية عن قانون تربوي دقيق وضعه الخضر عليه السلام، يقوم على ركنين أساسيين هما: الصبر والأناة، وقد شكّلا ميثاق العملية التعليمية بين الطرفين.

غير أن إخلال موسى عليه السلام بهذا الميثاق، رغم حسن نيته، أدى إلى تذكيره بشرط الصبر، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف (67)]. وتدلّ القصة على أن المعلّم يمنح المتعلّم فرصًا متعددة، ولا يقطع عنه طريق العلم عند أول خطأ، غير أن تكرار الإخلال بالمنهج المتفق عليه يؤدي إلى توقف العملية التعليمية، كما وقع في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف 78].

ويكشف الحوار الممتد بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، منذ لحظة طلب العلم إلى قرار الفراق، عن أن التسرّع في الحكم كان عائقًا أمام استكمال التعلّم، وهو ما يجعل الصبر شرطًا جوهريًا في التحصيل العلمي. ويؤكد المنهج القرآني من خلال هذه القصة أن تصرّفات أهل العلم، التي قد تبدو مخالفة للمنطق الظاهري، إنما ترجع في كثير من الأحيان إلى قصور الفهم، وضعف الإحاطة بالسياقات المعرفية.

وقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: "**يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**"،وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: "**رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، ولو صبر لرأى العجب**"، والذمامة بفتح الذال هي الحياء والإشفاق من اللوم. وبهذه التوجيهات النبوية، والإشارات القرآنية، يُرسي القرآن الكريم قواعد السلوك القويم"[17] في طلب العلم والمعرفة، ويؤسس لمنهج تربوي متكامل، يقوم على التواضع، والصبر، وحسن الأدب، وضبط السؤال، وحسن الظن بحكمة أهل العلم.

ثانيا: سمات المعلم النموذجي في شخصية العبد الصالح

تُجسّد شخصية العبد الصالح في القرآن الكريم نموذجًا تربويًا متكاملًا للمعلّم الحكيم ،، الذي تتآلف وتجتمع في شخصيته عناصر العلم الراسخ، والخلق الرفيع، والمنهج التربوي الرشيد. فقد خصّه الله تعالى بعلمٍ خاص، علم لدنيّ مصدره الوحي والإلهام الرباني، وهو علم يتجاوز حدود المعرفة المكتسبة إلى بصيرةٍ نافذةٍ بحقائق الأمور ومآلاتها، هذه الأمور كلها هي التي جعلت منه موجها أساسه الحكمة والرفق، الذي تجسد في تعامله مع نبي الله موسى عليه السلام، كما أن هذه القدرات يجب أن تستعمل فب التعامل مع الفروق الفردية للمتعلم في الاستعداد النفسي والقدرة المعرفية على الفهم والاستيعاب.

فالمنهج التعليمي للعبد الصالح في اعتماده التطبيق العملي يبرز القدوة السلوكية بوصفها أساسًا للعملية التعليمية، بدل الاكتفاء بالتلقين النظري المجرد، وهو أسلوب تربوي بالغ الأثر في ترسيخ المعرفة وبناء الوعي العميق لدى المتعلّم. كما يظهر لنا من منهجه أنه اتسم بالانضباط والتنظيم، من خلال وضع شروط واضحة تحكم مسار التعلّم، وتضبط العلاقة التربوية بين المعلّم والمتعلّم، بما يحفظ مكانة العلم، ويحول دون الاضطراب المعرفي أو الاستعجال في إصدار الأحكام. ويكشف هذا المنهج كذلك عن وعيٍ تربويّ دقيق بأهمية التدرّج والمرحلية في بناء المعرفة، والانتقال بالمتعلّم من المشاهدة إلى الفهم، ثم إلى التأويل وإدراك المقاصد والمآلات.

وقد حدد القرآن الكريم جملة من الملامح لهذه الشخصية التربوية في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، حيث قدّم وصف الرحمة على العلم، في دلالة تربوية عميقة تؤكد أن العلم إذا تجرد من القيم الإنسانية والأخلاقية فقدَ أثره التربوي، وأن اكتمال شخصية المعلّم لا يتحقق إلا باجتماع المعرفة والرحمة.

ويعتبر التقوى من أبرز السمات التي تؤهّل المعلّم لأداء رسالته التعليمية على الوجه الأمثل؛ إذ تمثل أساسًا لفيض العلم ونمائه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282]. وقد تجلت هذه السمة بوضوح في شخصية العبد الصالح، إذ كان مدركًا أن ما أُوتي من علم إنما هو فضل إلهي محض، لا مجال فيه للادّعاء أو التعالي، وهو وعي يعمّق الإخلاص، ويحرّر المعلّم من النزعات الدنيوية، ويجعله أكثر خشيةً وتجردًا في أداء مهمته التربوية.

فالرحمة قيمةً مركزيةً في العمل التربوي، فهي تنبع من المحبة والشفقة، وتنعكس رفقًا وحلمًا في التعامل مع المتعلّمين. وقد جعل القرآن الكريم هذه القيمة محورًا للرسالة المحمدية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]. وقد اجتمع في العبد الصالح عنصرا العلم والرحمة، فكان علمه وسيلة للهداية لا للإرباك، وكاشفًا لحِكَم الأفعال لا مثيرًا للالتباس، فتميّزت تصرفاته بالحكمة، وتجلّى من خلالها الفرق بين ظاهر الأفعال وبواطنها، وبين الفساد المتوهَّم والمصلحة الحقيقية.

ومجمل القول، فإن شخصية العبد الصالح تقدّم نموذجًا تربويًا قرآنيًا رفيعًا للمعلّم القدوة، الذي يُحسن الجمع بين عمق المعرفة، وصفاء التقوى، وسعة الرحمة، والانضباط المنهجي في التعليم، بما يسهم في بناء المتعلّم بناءً متوازنًا، ويقوده نحو الفهم السليم والوعي الراشد.

المطلب الثاني: البناء النفسي والمعرفي للمتعلم في ضوء قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح

تبرز القصة أهمية الإعداد النفسي قبل الإعداد المعرفي؛ فطالب العلم لا يمكنه الاستفادة من معلمه ما لم يكن قادرًا على ضبط انفعالاته، والتحلي بالصبر والأناة. وقد واجه موسى انفعالات بشرية طبيعية: العجلة، الاستغراب، وعدم التوقع، مما يشير إلى أن البناء النفسي جزء أصيل من عملية التعلم. كما تبرز القصة ضرورة تدريب المتعلم على مهارات الفهم العميق، وعدم الاكتفاء بالمظاهر السطحية للأحداث. فالمعلم قد يقدّم معرفة تتجاوز الظاهر إلى الحكمة الباطنة، ولا يدركها المتعلم إلا بعد التدرج والصبر.

قال تعالى :﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف(66) (70)]، يقوم الخضر عليه السلام وهو المعلم بالتهيئة النفسية للأحداث التي سيراها موسى عليه السلام، لأنها تخالف التفسير المنطقي العقلي، والأحكام الظاهرة التي تعارف عليها الناس، وهذا تعاقد بين المعلم والمتعلم، ليستعد للصبر وضبط النفس، وهكذا تعهد المتعلم بالطاعة والانقياد للتعليمات التي تصدر من المعلم، كما يضع المعلم شرطا أساسيا للعملية التعليمية، وهو تجنب السؤال والاعتراض حتى يتسنى له تفسير وكشف خفايا هذه الوقائع، حتى لا يفوت على نفسه الخير الكثير .

تُبرز قصة نبيّ الله موسى عليه السلام مع الخضر حقيقةً إنسانية أصيلة، تتمثّل في طبيعة الإنسان الذي خُلق من عَجَل، وهي سِمة لم تَنفِها النبوّة عن موسى عليه السلام، بل تجلّت في شخصيته على هيئة مبادرة إلى الخير والمسارعة إلى نصرة الحق. فقد كانت عجلته دافعًا له إلى الدفاع عن المظلوم، فقتل القبطي المعتدي، وهو ما ترتّب عليه خروجه من ديار فرعون، كما ظهرت في مبادرته إلى سقي المرأتين دون انتظار مقابل. غير أنّ هذه السرعة، وإن كانت محمودة في بعض المواضع، قد تتحوّل في سياقات أخرى إلى سبب للحرمان أو الوقوع في الخطأ، إذا لم تُضبط بالتريّث والحكمة.

وفي هذا الإطار، تأتي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام بوصفها درسًا تربويًا عميقًا في تهذيب سلوك المتعلّم، ودعوته إلى التحلّي بالصبر وضبط العجلة، حتى لا يكون التسرّع مانعًا من الانتفاع بالعلم. فقد اشترط الخضر على موسى الصبر وعدم الاعتراض، لما يحمله علمه من أسرار قد لا يستوعبها المتلقّي في بدايات التعلّم. ومع ذلك، فإن ما أوتيه الخضر من علم لدني لم يكن مسوّغًا لترك التفسير والإيضاح في نهاية المطاف، بل بادر إلى بيان ما استغلق على تلميذه، درءًا للتأويلات الخاطئة التي قد تفضي إلى الانحراف أو الهلاك، وهو ما يضع حدًّا للمزاعم التي يتذرّع بها بعض المنتسبين إلى المعرفة الباطنية، حين يمتنعون عن البيان بحجة عدم قدرة المتلقي على الفهم.

كما تكشف القصة عن أدبٍ رفيعٍ في مقام التعليم، يتجلّى في أسلوب الخضر عليه السلام في نسبة الأفعال عند تفسيرها، رغم كونها جميعًا بأمر الله تعالى. فقد نسب ما فيه شائبة النقص إلى نفسه تأدّبًا وتنزيهًا لله، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، بينما نسب الخير المحض إلى الله تعالى، كما في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82]، وفي موضع آخر جمع بين النسبة إلى النفس وإلى الله، مراعيًا دقة المقام، كما في قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: 81.]

وعلى الرغم من أن جميع هذه الأفعال كانت وحيًا وأمرًا إلهيًا، فإن قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يمثّل ذروة في الأدب مع الله تعالى، وتجليًا لمعاني التواضع والخضوع لحكمته. ومن ثمّ، تُقدّم قصة موسى مع العبد الصالح نموذجًا تربويًا فريدًا، يستفيد منه المربّي في الإعداد النفسي والعقلي للمتعلّم، ويؤسّس لمنهج تعليمي قائم على الحوار، والصبر، والتدرّج، بما ينسجم مع متطلبات الواقع التربوي المعاصر.

تجسّد قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح مظهرًا جليًا للمنهج القرآني في ترسيخ قيمة التواضع العلمي، من خلال نموذج نبيّ كريم يتعامل بأدب وخضوع معرفي مع من هو دونه منزلةً في المقام النبوي، غير أنّه يفوقه علمًا ومعرفةً في مجال مخصوص. وعلى الرغم من أن كلا الطرفين قد تلقّى العلم عن الله تعالى، فإن القصة تؤكد أن الله سبحانه يفضّل بعض عباده على بعض، ويفتح على بعضهم من أبواب الفهم والإدراك ما لا يفتحه على غيرهم، كما هو الشأن في العلاقة بين موسى عليه السلام والعبد الصالح.

ويمثّل هذا التواضع العلمي عنصرًا نفسيًا وتربويًا بالغ الأهمية في مسار التعلّم؛ إذ يسهم في إضفاء الطمأنينة على نفس المتعلّم، ويشكّل حافزًا للاستمرار والمثابرة، بعيدًا عن اليأس أو الشعور بالاكتفاء المعرفي. ومن اللافت أن الله تعالى لم يأمر موسى عليه السلام بالتواضع أمرًا مباشرًا، وإنما اختار له أسلوبًا تربويًا أعمق أثرًا، يتمثل في التعلم الذاتي القائم على اكتشاف حدود المعرفة الإنسانية، من خلال توجيهه إلى عبد من عباده الصالحين آتاه الله علمًا لم يؤته لموسى عليه السلام.

وتعرض سورة الكهف تفاصيل هذه الرحلة التعليمية الفريدة، حيث يعبّر موسى عليه السلام صراحة عن رغبته في التعلّم بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، في مقابل تهيئة نفسية منهجية من العبد الصالح، الذي نبّه موسى إلى طبيعة العلم الذي سيشاهده، واشترط عليه الصبر وعدم الاعتراض، بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 67.] وقد قبل موسى عليه السلام هذا الشرط عن وعي واختيار، مؤكّدًا استعداده للالتزام به، لتنطلق بعد ذلك الرحلة التعليمية القائمة على المصاحبة والمشاهدة والتجربة المباشرة.

وخلال هذه الرحلة التعليمية، تبيّن لموسى عليه السلام محدودية قدرته على الإحاطة بما يشهده من أفعال، بدت له – وفق معيار الحكم القائم على الظاهر – منافيةً لمقتضيات العدل والرحمة؛ إذ مثّل خرق السفينة اعتداءً على مال المساكين، وعدَّ قتل الغلام إزهاقًا لنفسٍ بغير حق، بينما بدا بناء الجدار دون مقابل تصرّفًا غير مبرَّر في سياق قرية امتنعت عن إكرام الضيف. غير أن هذه المواقف، على الرغم من اعتراض موسى عليها، أسهمت في إحداث تحوّل معرفي عميق في بنيته الفكرية، إذ زعزعت مسلّماته الأولية، ودفعت به إلى التساؤل حول حدود الفهم الإنساني القائم على إدراك الظواهر دون النفاذ إلى مقاصدها وبواطنها.

ويبلغ هذا المسار التربوي ذروته عند لحظة البيان والكشف، حين يقول العبد الصالح: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78]، فتنكشف لموسى عليه السلام حقيقة الأفعال ومآلاتها، ويتبيّن له أن ما بدا في ظاهره اعتداءً أو ظلمًا كان في حقيقته تجسيدًا للحكمة الإلهية والمصلحة العليا؛ فخرق السفينة جاء حمايةً لها من استيلاء الملك الغاصب، وقتل الغلام كان رحمةً بوالدين صالحين خشية أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا، وبناء الجدار كان حفظًا لحق يتيمين في كنزٍ كان أبوهما رجلًا صالحًا.

ومن خلال هذا البيان، يتأكد لموسى عليه السلام أن المعرفة الإنسانية، مهما بلغت من السعة والعمق، تظل محدودة الإحاطة، وأن الإحاطة بجانب من العلم لا تستلزم الإحاطة بجميع جوانبه، وهو ما يقرّره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76.]

وعلى هذا الأساس، تحلّ قيمة التواضع المعرفي محلّ اليقين المطلق، ويتأسس وعيٌ تربويٌّ عميق يقوم على الإقرار بنسبية المعرفة البشرية، وحدود العقل الإنساني في إدراك مقاصد الأفعال ومآلاتها. وبذلك تغدو قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح نموذجًا قرآنيًا متكاملًا في بناء المتعلّم، وتوجيهه نحو تعلّم راشد يقوم على الصبر، والتواضع، وحسن الظن بحكمة الله تعالى.

خاتمة

يتبيّن من خلال التدبر في قصة موسى مع العبد الصالح، أن طلب العلم في المنهج القرآني ليس مجرد تحصيل معرفي، بل هو مشروع تربوي متكامل، يجمع بين المعارف والقيم والسلوك، مع التزكية النفسية. فقد قدمت القصة نموذجًا رفيعًا للعلاقة بين المعلّم والمتعلّم، يقوم على التواضع والصبر وحسن الأدب واحترام الخبرة والتخصص، مما يجعل من التعلم عملية إنسانية متكاملة تسهم في بناء شخصية المتعلم وتنمية وعيه.

أولًا: النتائج

1. تكاملية مفهوم العلم في القرآن :يظهر أن العلم القرآني يجمع بين المعرفة النظرية والتهذيب القيمي والارتقاء النفسي.
2. التواضع أساس التحصيل :يبرز تواضع موسى عليه السلام في طلب العلم نموذجًا فريدًا للمتعلم مهما بلغ مستواه.
3. الصبر كشرط لفهم الحكمة :كررت القصة أهمية الصبر في الوصول إلى المعاني العميقة وراء الأحداث الظاهرة.
4. أدب العلاقة بين المعلّم والمتعلّم :تؤكد القصة ضرورة احترام المتعلم لمعلمه والتزامه بآداب السؤال والمتابعة.
5. البناء النفسي للمتعلم :يظهر أن صفاء النفس واستعداد القلب من أهم شروط التلقّي الصحيح والفهم السليم.

ثانيًا: التوصيات

1. دمج البعد القيمي والنفسي في المناهج التعليمية وجعله جزءًا أصيلًا من عملية التعلم وليس عنصرًا ثانويًا.
2. تعزيز ثقافة التواضع العلمي لدى المتعلمين والباحثين، وإبراز نماذج الأنبياء والصالحين في هذا الجانب.
3. تدريب الطلاب على مهارات الصبر المعرفي، مثل التأني في الحكم، واحتمال صعوبة الفهم، وعدم الاستعجال في النتائج.
4. إعداد برامج لتطوير العلاقة التربوية بين المعلم والمتعلم تقوم على الاحترام المتبادل والوضوح في الحقوق والواجبات.
5. الاهتمام بالبناء النفسي للمتعلمين من خلال دعمهم، وتوفير بيئة آمنة، وبرامج تعزز الثقة بالنفس والاتزان الانفعالي.
6. تفعيل القصص القرآنية في التعليم بوصفها مصدرًا تربويًا غنيًا يربط المعرفة بالسلوك والقيم.

وبذلك تتضح أهمية استلهام النموذج القرآني في تطوير المنظومة التعليمية المعاصرة، ليصبح التعلم مسارًا متكاملًا لصناعة الإنسان علميًا وقيميًا ونفسيًا.

الهوامش:

[1]انظر: فتاوى السبكي لأبي الحسن تقي الدين السبكي73/1.

[2] تفسير ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، دار الكتب العلمية، ط1، 1390م.، ص 253.

[3]معارج التفكر ودقائق التدبر، حبنكة الميداني،422/123.

[4]موسى كليم الله، الصلابي ص 1069 وانظر: قصص الأنبياء، متولي الشعراوي، ص 342.

[5]القصص القرآني، الخالدي، 336/2.

[6] قصص الأنبياء للشعراوي، ص 343

[7]مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ط 3، 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 21/423.

[8]التيسير من أحاديث التفسير، مكي الناصري، ص 443.

[9] في ظلال القرآن، سيد قطب، 2278.

[10]تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن ناصر السعدي، لبنان، دار ابن حزم، 2003م ص 456.

[11]في البناء الدعوي، لأحمد عبد الرحمن الصويان، السعودية، البيان مركز البحوث والد ارسات،1433هـ، ص 91.

[12]الطرق الجامعة للقراءة النافعة المحمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، السعودية ،2009م ص 29-30.

[13]منطلقات طالب العلم لمحمد حسين يعقوب، المكتبة التوفيقية، مصر، 2001م، ص 405/404.

[14]تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن ناصر السعدي، ص 457.

[15] أنظر:أساليب التكوين الخاصة في وحدة التربية الإسلامية، لعبد السلام البكاري، مجلة الإحياء، رابطة علماء المغرب، الرباط،1421هـ، عدد 12، ص 172.

[16]في البناء الدعوي، لأحمد عبدا لرحمن الصويان، ص114.

[17]التيسير في أحاديث التفسير، مكي الناصري، 360-359/3.